العقائد والمذاهب

الإيمان المطمئن

للدكتور عبد الحليم محمود

« أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القلوبُ »

(٤)

وإذا كان النوع السابق من الإلحاد : إنما هو إلحاد نابع من انحراف الغريزة الجنسية ، أو غريزة التملك ، فهذا النوع الذى سنذكره ، هو ما يسمونه : الإلحاد العلمى ، أو الإلحاد المنطقى ؛ وهو إلحاد بعض الفلاسفة ، ليس كلهم ولا أغلبهم ؛ وإلحاد بعض المفكرين العلميين ، ليس كلهم ولا أغلبهم .

إن الحقيقة التى لا جدال فيها هى : أن الأغلبية العظمى من الفلاسفة ، ومن العلماء فى جانب الإيمان ، والإلحاد فى جو الفلاسفة ، وفى جو العلماء : شذوذ .

ومما لا شك فيه أن عباقرة الفلسفة : القدماء منهم والمحدثين : مؤلهون .

فسقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وأفلوطين ، وديكارت ، وكانت من المؤلهين .

وإذا كان الإلحاد الفلسفى شذوذاً ، فان ذلك لا ينفى أنه حقيقة موجودة ، وأن له ممثلين باستمرار ؛ وهم - على حد تعبير الإمام الغزالى - « جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً » .

وديموقريطس ، فى العهد اليونانى ، هو الذى حاول بكل جهده أن يقيم من الإلحاد مذهباً ؛ وكانت فكرته هى :

أن المادة قديمة ، وهى مركبة من أجزاء لا تتجزأ ، وهذه الأجزاء ، أو الذرات

دائمة التحرك فى الفضاء اللا نهائى ؛ ومن اجتماعها تتكون الأجسام ، وبالافترقها تفنى وهكذا استمر الأمر من الأزل ، وسيبقى إلى الأبد بدون غاية ولا هدف ، إنها الآلية البحتة .

وهذه الفكرة وإن كانت قديمة ، فانها فكرة كل من يتخذ الإلحاد مذهباً فى العصور الحديثة ، وإن اختلفت كيفيات التعبير عنها .

إنها فكرة الماديين المحدثين ، كما كانت فكرة الماديين القدماء ولم يغير من جوهرها تحطيم الذرة أو تفتيتها ، اللهم إلا فى كيفية التعبير عنها .

وقد رد القدماء ، فى سهولة وفى قوة ، على هذا المذهب ، وكذلك فعل المحدثون وكانت حجتهم ، من الدقة ومن الإحكام ، بحيث تجعل المتأمل فيها لا يتأتى أن يقول بغيرها .

وقد لخص حجج القدماء الأستاذ : سانتلانا ، فى المخطوط المعنون بعنوان : « المذاهب الإسلامية » . . ونحن نورد تلخيصه الرائع فيما يلى :

وأما القول بالطبيعة ، وأن لا شىء غيرها : فهو لا يرضى العاقل المتبصر ؛ كأنه يقول :

نعم ، أنا لا أنازع فى كون الطبيعة والحركة : من أصول الموجودات ، وإنما توقفت فى كيفية صدور الفعل منها .

فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب ، والترتيب الغريب ، الذى حارت فيه العقول ، وقصرت عن إدراكه الفحول .

كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والصدفة ومجرد البخت ، البخت ، ليت شعرى ، كيف اجتمعت تلك الأجزاء ، وكيف تألفت ، على اختلاف أشكالها ، أو تباين موادها وقواها ؟ ! ! ، وكيف بقيت على تألفها ؟ ! ! وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ؟ ! !

وقد شهدت المعاينة : بأن حركات أجزاء لا نهاية لها ولا محرك : لا تفضى إلا إلى غاية الالتباس وعدم القياس !

هذا لعمرى ، كمثل من وضع حروف المعجم فى ظرف ، أو صندوق ، ثم جعل يحركها يوماً بعد يوم ، طمعاً منه أنها تتألف من تلقاء نفسها ، فيتركب منها

قصيدة بليغة ، أو رسالة عميقة فى المنطق ، أو فى الهندسة دقيق ! !

أليس من السفه البين ، فإنه لو دام على تحريكها السنين والدهور لما حصل من كده إلا على حروف ! !

فكيف يتصور حدوث هذا الموجود بما هو عليه: من الاتقان والإحكام، وتضافر الأجزاء، وعجيب مناسباتها بعضاً لبعض : من حركات اتفاقية فى خلاء لا نهاية له ؟!!

قال أرسطو فى كتاب « سمع الكيان » :

« إن كل نظام يدل على وجود العقل » .

وفضلا عن هذا ، فإن ما يحصل اتفاقاً لا يحصل إلا مرة واحدة ، ولا يتكرر، ولا يسوغ بناء حكم عقلى عليه ، ولا يقبل القياس ، بخلاف ما شهدت به التجربة فى عالمنا من الثبوت . ولولا هذا لما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية.

هذا ، وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعه ، ولاشىء سواها ، فمن أين هذه القوة العقلية التى يجدها كل واحد من نفسه ؟ ! !

وهى — مع ما فيها : من العجز ، والقصور ، وكثرة الخطأ — من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة فى هذا العالم .

ولا سبيل ، من المادة ، إلى الأفعال العقلية ؛ لما بينهما من المغايرة الأصلية .

فوجود هذه القوه : يستدعى وجود جوهر يجانسها ويماثلها ، ليكون أصلا لها ومركزاً .

هل يحتمل : أن ما نشاهده : من قصور المعقولات ، والكشف عن الكليات وتفريق القضايا ، وتركيب القياسات : ليس هو ، فى نفس الأمر إلا اصطكاك جزء من المادة بجزء آخر ! !

هل يحتمل : أن ما تضمنته عقولنا : من الأبحاث الدقيقة ، والمآخذ العميقة : كالمنطق ، والرياضيات ، والالهيات ، وما فتنت من القلوب : من الشعر الرائق ، والمطرب من الألحان ، وسحر البيان : أصله من تلك الأجزاء ؟ ! !

وكانبعاث النار من اصطكاك الحجر بالحجر ، وذلك فى خصوص النار ؛ إذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير .

ويا ليت شعرى ، ما النسبه بين الحجر والعقل ؟ ! !

فإذا كانت المادة غير قادرة لأن تكون علة لنفسها ، فمن باب أحرى وأولى . أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأناً ، فى درجة الوجود ؛ وإلا كان الأخس أصلا لما هو أرفع ؛ وهذا ما يستبعده العقل وتأنفه الفطرة السليمة .